مهاتما غاندي

— ٥ —

العودة الى الهند

حان الوقت الذي اغادر فيه انجلترا ، وحصلت على اجازة بالسفر على الباخرة « آسام » في شهر يونيه . وكانت الرياح « الموسمية » Monsoon قد اخذت تهبُّ عندما بلغنا بحر العرب وظلَّ الجو عاصفاً طوال سياحتنا الى بومباي ، بعد ان غادرنا ميناء عدن . واصيب كل من كان على الباخرة بدوار البحر ، غير أني ظللت مُعافى ، وشعرت بكثير من السرور والمرح اذ كنت اقف على ظهر السفينة ارقب هياج العاصفة وتلاطم الامواج الثائرة . وكان اكثر المسافرين مصابين بالدوار ، فلم يكن يحضر الى غرفة الطعام للافطار سوى اثنين او ثلاثة أنا واحد منهم ، فتقدم لنا عصيدة القرطم في اطباق تتشبث بها في احضاننا لئلا تفلت منها العصيدة وتلوثنا

كانت العاصفة التي ترسل باهازيجها في الخارج ، رمزاً الى العاصفة الثائرة في نفسي . على أن عاصفة الطبيعة لم تستطع ان تهزَّني او تزعجني . وعن هذا عجزت ايضاً العاصفة التي كانت تثور في نفسي . وكنت اتوقع ان اواجه عاصفة اخرى يثيرها اهل طائفتي . اضف الى ذلك ما كنت اشعر به من عجزعن ان ابدأ حياتي كمحام . ولما كنت بطبعي مصلحاً ، اخذت أكدُّ نفسي في التفكير بأية ناحية من نواحي الاصلاح أبدأ . ولكن القدر كان يخبأ لي اكثر مما جال في خاطري

حضر أخي الاكبر من « كاثياوار » ليتلقاني على المرفأ . وكان قد تعرف بالدكتور « مهتا » واخيه . ونزلنا ضيفين في بيت اخي الدكتور « مهتا » بعد ان الح على اخي الحاحاً . وبذلك تحوَّلت المعرفة التي بدأت في انجلترا الى صداقة دائمة بين الاسرتين وظلت طوال رحلتي الى وطني انطلع الى لقاء أمي . وكنت اجهل انها لم تعد بعد بين الاحياء لتتلقاني بذراعيها وتضمني الى صدرها . ولقد القى اليَّ اخي بهذا الخبر المحزن ، بعد ان اخفاهُ عني في خلال اقامتي في انجلترا ، واراد بذلك ان يكفيني مؤونة الصدمة وأنا في بلاد اجنبية . والحق أن هذا الخبر كان صدمة عنيفة لي ، ولكن لم اتطوح مع الحزن والاسى . وكان حزني على فقد امي اعظم من حزني على فقد أبي . غير اني اذكر تماماً اني لم اتمادَ في التعبير عن حزني الى الحد الذي يخرجني عن الوقار ، حتى لقد استطعت ان احبس دموعي ، وان امضي في اعمالي كما لو كنت في حالتي العادية ، وكأن لم يكن في قلبي حزن عميق

قدمني الدكتور « مهتا » الى كثير من الاصدقاء ، كان أحدهم أخاه واسمه « ريشانكر جاجفان » وكان تعارفنا مقدمة لصداقة طويلة فلت طول عمره على احسن حال . ولكني أريد ان اشير على وجه خاص الى « تقدمة » قدمني بها الدكتور « مهتا » لشاعر رَيْشَانْد Raychand وهو يمت بقرابة الى أخ كبير من اخوة الدكتور « مهتا » ، واحد المساهمين في اتحاد الصاغة . ولم يكن هذا الشاعر قد تجاوز الخامسة بعد العشرين من عمره . غير ان اول لقاء به اقنعني انهُ رجل قويم الاخلاق واسع المعرفة . وكان يُلَقَّبُ « بالمُعَلِّمة »[1] Shatavadhani وحرضني الدكتور « مهتا » أن امتحن قوة ذاكرته ، فاخذت أعيد كلمات مما اعرف من مختلف اللغات الاوربية ، وسألتهُ ان يعيدها ، فأعادها على نفس الترتيب الذي نطقتها به . ولقد شعرت بأني احسنت على كفايته هذه ، غير اني لم أوخذ بها . اما ما أثار اعجابي به بحق فسعة معرفته بالكتب المقدسة واخلاقهُ العالية ، وتحرقهُ واشتهاؤهُ ان يحقق ذاته ويصبح بها مستقلاً في افق جديد . وكان هذا غرضهُ الذي من اجله يعيش . وكثيراً ما كان يردد « ابياتاً » من شعر « مكتانَاد » Muktanad كنت أشعر بأنها محفورة على صفحات قلبه :—

« أشعر بأني في نعيم عندما « اراه » (الله) في كل عمل من أعمال يومي . والحق انهُ المحيط الذي يصل حياة مُكْتَانَادْ »

كانت تجارة « ريشاند — باي »[2] تقوم بمئات الالوف من الروبيات . وكان خبيراً باللآلئ والماس . ولم تكن تعترضهُ مشكلة من مشاكل العمل الاَّ وتصبح بين يديه سهلة هينة . ولكن كل هذه الاشياء لم تكن المحور الذي تدور من حوله عجلة حياته . اما حياته فكانت تدور عجلتها حول الشهوة في ان يرى الله وجهاً لوجه . فكنت ترى بين الاشياء الكثيرة المتناثرة على مكتب عمله كتاباً دينيًّا ويومياته . فكان لدى انتهائه من عمله يتناول الكتاب الديني او اليوميات . واكثر ما نشر من مؤلفات ، لم تخرج عن انها منتخبات من يومياته . والرجل الذي يستطيع أن يعكف توًّا ، وبتجرد ان يخلص من اعماله التجارية ، على الكتابة في الاشياء الخفية العميقة في اغوار النفس ، ليس برجل تاجر على اطلاق القول ، بل رجل يبحث عن الحق بكل معناه . ولقد شهدته مأخوذاً بأبحاثه الروحية وهو مغمور في لجة عمله التجاري مرات لامرة واحدة . ولم الاحظ انهُ فقد توازنه العقلي في اي ظرف من الظروف . ولم يكن بيننا اية علاقة دنيوية تربطنا ، ومع هذا فكنت اتبعهُ متابعة الظل . كنت في الاكثر محامياً مغموراً . ومع هذا فكنت لا أراهُ الاَّ ويجرني الى الكلام في مسائل ذات صيغة دينية وعلى الرغم من

---

(١) الكلمة الهندية Shata-vadhani معناها الشخص الذي يستطيع ان يتذكر او يعي مائة شيء في آن واحد ، ويخيل الي ان كلمة اقرب كلمة عربية يمكن بها التعبير عن هذا المعنى (المترجم)

(٢) العادة المتبعة في مقاطعة جوجرات وبعض مقاطعات غيرها في الهند تقضي بان يضاف مقطع « باي » أو بهاي bhai (ومعناها اخ) الى اسم الصديق تكريماً واظهاراً للود

اني كنت حتى ذلك الحين ما ازال اتلمس طريقي تلمساً ولم يكن لي أية لذة في المناقشات الدينية، كنت أجد في حديثه هزة لا اعرف مبعثها . ولقد كان هذا سبباً في ان ازور الكثيرين من حكماء الدين ، وحاولت ان اقابل الكثيرين من رؤساء الطوائف الدينية . ولكن من غير ان يترك واحد منهم في نفسي من الأثر ما ترك « ريشاند — باي » فان كلماته كانت تنفذ رأساً الى اعماق نفسي، وحازت قوة عقله عندي من الاحترام ما لا يقل عن احترامي لجدّه الادبي، وتقتي التي لا يمكن ان يكتنفها شك في أنهُ سوف لا يغشني او يغويني ،وانهُ سوف يطلعني دائماً ويفضي بذات نفسه . ولذا لم اكن اجد غيره من منجاً، كلما ساورتني الازمات الروحية العنيفة

ومع هذا ، وعلى الرغم من عظيم احترامي له ، فاني لم استطع أن انزله من قلبي منزلة « الغورو »[1] — Guru — من نفسي . فان هذه المكانة ظلت خالية ، وما ازال ابحث عمن يشغلها حتى الآن . على اني اعتقد بصحة النظرية الهندية في « الغورو » وقيمته في تحقيق السمو الروحاني . ويخيّل اليَّ ان هناك قسطاً عظيماً من الحق في الحكمة القائلة بانّ المعرفة الحقيقية غير مستطاعة من غير « غورو » . فان معلماً غير كامل العدة في المسائل الدنيوية امر قد يحتمل وقد يتسامح فيه الانسان ، اما في المسائل الروحانية فالامر على خلاف ذلك . وان معلماً كاملاً في المسائل الروحانية ، بكل ما تحتمل صفة الكمال من المعاني ، هو دون غيره الذي يصح للانسان أن يتوّجه ملكاً على عرش القلب والوجدان . وعلى هذا يجب ان يستمر الانسان يكافح طوال حياته في سبيل بلوغ ذروة الكمال. لان كل انسان انما يصل الى « الغورو » الذي يستحقه . وكفاحنا في سبيل الكمال هو حق الانسان الطبيعي . والكمال يحمل في ثناياه ما ينتظر الانسان في الدنيا من ثواب . اما الباقي بعد ذلك فبين يدي الله . وعلى الرغم من انني ما استطعت أن اضع « ريشاند — باي » في موضع « الغورو » من قلبي ، فانه كان في كثير من الحالات مساعدي ومرشدي . ان ثلاثة من المحدثين استطاعوا أن يتركوا فيَّ اثرهم الثابت ويختلبوني اختلاباً . ريشاند — باي بعلاقته الشخصية، وتولوستوي بكتابه «ملكوت الله في نفسك»[2] ورسكن بكتابه «حتى هذه النهاية»[3]

عقد اخي عليَّ آمالاً كباراً . وكانت تحتكم فيه رغبة المال وبعد الصيت وذيوع الاسم وكان كبير القلب متجاوزاً عن الاخطاء ، وفوق ذلك سليم الفطرة ساذجها ، فالتفَّ حوله كثير من الاصدقاء الاوفياء ومن طريقهم حاول ان يزوّدني بالقضايا والمنازعات القضائية . وتخيّل اني عما قريب سوف احصل على قدر كافٍ من المرانة والتقدم في العمل ، وعلى هذا التقدير اسرف في نفقات البيت والمعيشة. ومضى يعمل بكل جد ليمهد لي سبيل العمل كمحام أمام المحاكم

كانت العاصفة التي اثارها زعماء طائفتي قبل سفري الى انجلترا لا تزال ثائرة ، حتى لقد

(١) حكيم روحاني . وهو ليس اسم شخص ، بل اسم يطلق على من يتصف بالحكمة الروحية ويوجه غيره الى الرشد (٢) The Kingdom of God is Whitin You (٣) Unto This Last

انقسمت الطائفة قسمين ، حكمت احداهما قوةً لدى رجوعي الى الهند بدخولي مرة اخرى الى حظيرتها ، ومضت الاخرى مستمسكة بقرار فصلي الذي صدر قبل سفري . فمن اجل ان يرضي اخي الطائفة الاولى ، اخذني قبل سفري لراجكوت الى «ماسك» وغسلني في النهر المقدس ، ولما وصل الى راجكوت اعدّ وليمة طائفية لتكون بمثابة كفّارة عن ذنبي . ولقد كرهت كل هذا وزهدت فيه . ولكن حب اخي لي كان عظيماً ، ولم يكن تعلقي به يقلّ عن حبه لي . لهذا رضيت بأن اعمل كآلة تتحرك كما يريد ، معتبراً ان ارادته قانون عليّ الطاعة له . على أن هذا قد فضّ اشكال رجوعي الى الطائفة من طريق عملي عرف اخي كيف يسلك السبيل اليه

لم احاول مطلقاً أن أرجع الى الفريق الذي رفض ان اعود الى الطائفة . وكذلك لم اشعر بأي شعور من الحقد ازاء رؤسائها الذين كانوا سبباً في اخراجي من حظيرة الطائفة وحالوا دون رجوعي اليها . وفوق هذا ظللت احترم قرار الطائفة الذي صدر بفصلي وحرماني . فقد كان محرماً عليّ أن اتناول الطعام في بيت اقرب اقاربي حتى اختي وزوجها ، او ان اتناول شربة ماء في بيت واحد منهم . وكثيراً ما حاولوا ان يعدوا العدة ليخالفوا ذلك الامر سرّاً وعلى غفلة من رجال الطائفة . غير اني كنت ارفض دائماً ان اعمل في السر عملاً ، اخجل من ان آتيه جهراً

وكان سلوكي واستقامتي سببين في أن لا يحاول رجال الطائفة ازعاجي بصورة من الصور . بل على الضد من ذلك لم اشهد من كل أفراد الطائفة الا كل كرم وسخاء . وعلى الاخص من الفريق الذي ظل على رأيه في حرماني وطردي . وزادوا على ذلك انهم ساعدوني في عملي من غير أن يتوقعوا مني أية مساعدة أقوم بها من جانبي لصالح الطائفة : ولو انني حاولت ان اعود الى حظيرة الطائفة واخذت أدعو الى قبولي مرة اخرى ، او لو انني سعيت الى شق الطائفة الى شيع وفرق وان ازيد صدعها اتساعاً ، أو هاجمت رؤوس الطائفة وتحديتهم ، فما لا شك فيه انهم كانوا يناوئوني ويقابلون عملي بمثله . ولو أنني لم اعمل على تهدئة العاصفة ، لوجدت نفسي ، لدى وصولي الى الهند ، في لجة من الهيج الطائفي ، كانت بلا ريب تضطرني ان اصنع ما ليس في نفسي ، وأن انافق وان اتخذ الرياء قناعاً

أمّا علاقتي بزوجي فكانت منزال الى ذلك الحين على غير ما أرغب ان تكون . فان اقامتي في انجلترا لم تشفني من مرض الغيرة الآكلة . وظللت أبدي شكي في كل شيء مهما كان تافهاً . وبذلك ظلت كل شهواتي العزيزة عليّ غير مكتفية . وصممت على ان تتعلم زوجي القراءة والكتابة وان اساعدها في التعليم ، ولكن شهوتي وقفت في الطريق وكان عليها أن تحتمل على غير ارادة منها مسؤولية تقصيري وكسلي . وحدث مرة اني لطوحت في الغرق الى حد اني ارسلتها الى بيت أبيها ، ولم اقبل ان تعود الى بيتي الا بعد ان اذقتها التعاسة كيف يكون مذاقها ومرارتها . ولقد اقتنعت بعد ذلك بقليل ان هذا كله لم يكن مني الا حمقاً واسرافاً

اخذت افكر في اصلاح تعليم الاولاد . فقد كان لاخوتي أولاد ، وكان ابني الذي تركته قبل سفري الى انجلترا طفلاً قد شب وشارف على الرابعة من عمره . واتجهت رغبتي الى ان أعوّد هؤلاء الاولاد التعكوف على الرياضة الجسمية ليصبحوا اقوياء الابدان مشدودي الاعصاب قادرين على الاحتمال والصبر ، وان اتخذ من تجاربي الشخصية إماماً في تنشئتهم. ولقد شجعني على ذلك أخي ، ورجح نجاحي في هذا الشأن فشلي . على ان عشرة الاولاد كانت من مباهجي التي اسرُّ بها ، وما ازال حتى اليوم اتكشف على مادة اللعب مع الأولاد والتفكهة بهم ، ومنذ ذلك الحين بدأت أفكر في اني ربما اصلح لان اكون معلماً صالحاً للاولاد

وظهر لي ان الضرورة تدعو الى اصلاح طرق «التغذية» . وكان الشاي والقهوة كلاهما قد وجدا مكاناً في نظام المنزل . وعمل اخي على أن يكوّن جوًّا انجليزيًّا صرفاً في البيت استعداداً لقدومي . ولذا اخذت الآنية الخزفية تدخل في حيز الاستعمال بعد ان كانت تظل محفوظة للمناسبات . واكملت « اصلاحاتي » ما كان ينقص طريقة استعمال هذه الاشياء من نظام . واستبدلت الشاي والقهوة ، بعصيدة القرطم والكاكاو . ولكنهما في الحقيقة اصبحا اضافيين على الشاي والقهوة . وكنا نعرف من قبل الاحذية والنعال ، واكملت اذا « التفرنج » باستعمال الأردية الاوروبية

بدأت النفقات تزيد . وكنا نضيف كل يوم شيئاً جديداً . ولاجرم اننا نجحنا في زيادة النفقات اوكما يقول اهل الهند نجحنا في ان نربط فيلاً أبيضاً على بابنا ، ولكن كيف يمكن ان نسد نفقاته ؟ وكان البدء بالعمل في المحاماة يراجكوت معناه سخرية محققة النتيجة . ذلك لاني كنت فاقد الخبرة بكل ما يحتاج اليه «الوكيل»[1] من المعلومات والاجراءات ، وكنت اطلب عشرة اضعاف الأجر الذي يطلبه «الوكلاء» في الهند . فلم اسقط على صاحب قضية بلغ به الترق ذلك المبلغ الذي يغويه على ان يوكلني في دعوى . وحتى لو فرض ووجد ذلك «الانسان» فهل يصح ان اضيف الى جهلي ما يحتمل ان ينتج طغيان التعصب والاحتيال من نتائج تضاعف مقدار ديني ومسؤولياتي لهذه الدنيا ؟

ولصحني بعض الاصدقاء ان اهبط «بومباي» عسى ان احصل على بعض المرانة العملية امام المحكمة العليا ، ولأدرس القانون الهندي ولأحصل على ما يمكن ان احصل عليه من الفتاوى القضائية . فقبلت النصح وذهبت الى «بومباي» . وفيها استأجرت منزلاً ، وطباخاً لا يقلُّ جهله بالطهي عن جهلي به . وكان « برهماني » اسمهُ « رافيشنكر » . ولم اكن اعامله معاملة الخادم ، بل كأنهُ احد افراد المنزل . وكان يعب الماء على جسمه صبًّا ، ولكنهُ لا يستحم ابداً . وكانت ملابسهُ قذرة على الدوام ، كما كان على جهل مطبق بكل كتب الهند المقدسة. ولكن كيف يتسنى لي ان احصل على طاهٍ اليق منهُ ؟ كنت اسأله — يمكن ان تكون جاهلاً

(١) Vakil — اي المحامي الذي يتخرج من مدارس الحقوق في الهند

بالطهي ، ولكن الا يمكن ان تعرف شيئاً من عبادتك اليومية ؟ — « اعبادتي اليومية تذكر ياسيدي ! ان المحراث هو عبادتنا والفأس هي مراسمنا الدينية . انني انما اعيش اعتماداً على مراحك . فاذا فقدت الامل فيها فان الزراعة تكون ملجئي وظهيري »

هنا بدأت اكون معلماً للشؤن « راقيشنكر » ما يحتاج اليه من المعلومات الاولية . وبدأ الوقت يمر بي في بطء مسئم ، فأخذت اطهي نصف ضعاي . وأجري الطهي على الطريقة النباتية الانكليزية . فبليت موقداً وبدأت اقوم بخدمة المطبخ مع « راقيشنكر » . وكنت لا اشعر بحاجة الى غذاء بين الوجبات ، وعلى هذا جرى خادمي . ولم يبق لي من شكوى اوجهها اليه الا ادمانه القذارة ، حتى انهُ لم يكن يحفظ الطعام نظيفاً نظافة كافية

غير اني لم استطع المقام في « بومباي » اكثر من اربعة اشهر او خمسة لانهُ لم يكن لديَّ من الدخل ما يسد النفقات . وبعد ان يئست من ان احصل على عمل في « بومباي » غادرتها الى راجكوت ، وعدت الى مكتبي الاول . وهناك بدأت اعمل عملاً معتدل القيمة ، وبلغ متوسط دخلي ثلاثمائة روبية كل شهر . ولكن هذا لم يكن راجعاً الى مهارتي بل الى تأثير اخي . فان شريكه كان ذا خبرة بالاعمال ، فكان يعهد اليَّ بالبسائط ، ويعهد بالمشكلات الى كبار المحامين

وأرى انهُ من الواجب عليَّ ان اعترف انني بدأت في ذلك الوقت افكر في ضرورة اعادة النظر في مبدئي الذي جريت عليهِ من الامتناع عن دفع عمولة (سمسرة) . فقد أثبتُّ ان الحالة هنا على الضد مما اعهد . والعمولة تدفع في « بومباي » للسماسرة ، ولكنها في راجكوت تدفع الى الوكلاء الذين يمرنون المحامي بالقضايا . أما القاعدة هنا فكما هي في بومباي ان يدفع كل المحامين ومن غير استثناء ، نصيباً مئويًّا من اتعابهم سمسرة . اما كلام اخي في هذا الموضوع فكان مقنعاً . قال لي : « ترى انني شريك مع وكيل آخر . واني اميل دائماً ان نعهد اليك بكل القضايا التي نعرف انهُ في مقدورك مباشرتها ، فاذا رفضت ان تدفع عمولة لشريكي ، فمن المحقق انك تضعني في مركز حرج . ولما كنا نشترك معاً في معيشة واحدة فان اتعابك تعد دخلاً مشتركاً لكلينا ، وينالني من ذلك نصيب . ولكن ما يكون امر شريكنا ؟ افرض مثلاً انهُ عهد بقضية بين يديهِ الى محامٍ آخر ، فانهُ ينال منهُ عمولة » ولقد اقتنعت بهذا الكلام ، وشعرت بأني اذا اردت ان اعمل كمحام ، وجب عليَّ ان اضحي بمبدئي في دفع العمولة ، وفي مثل الحالات التي ذكرها اخي على الاقل . هذا ما ساورني وتردد في نفسي ، او بكلام نوضح ، بهذا خدعت نفسي وغششتها . ولا مندوحة لي عن ان اضيف الى هذا انني لا اذكر اني دفعت عمولة ما في حالة غير هذه الحالات التي جرى عليها كلام اخي . وعلى الرغم من انني جاهدت في سبيل ان اوفق بين المتقاضين ارضاءً لسر مهنتي ، فقد صدمت في ذلك الحين اول صدمة عنيفة في حياتي . ولقد سمعت كثيراً من قبل ما يعنى الهنود بضابط انكليزي ،

ولكني لم اكن قد وقفت امام ضابط انكليزي وجهاً لوجه حتى ذلك الحين

كان اخي سكرتيراً ومستشاراً للمرحوم «رانا بوربندر» وقد عُدِّقت في عنقه من بعد ذلك تهمة انه اشار بنصيحة فاسدة لما كان يشغل ذلك المنصب. ووضعت المسألة بين يدي القومسير السياسي ، وكان في صدره من اخي حقيقة . وكنت اعرف ذلك الضابط لما كنت في انكلترا. ومما يمكن ان اصرح به انهُ كان على صداقة معي . وظن اخي انهُ من المستحسن ان الجأ الى هذه الصداقة ، لألقي بكلمة طيبة عند الضابط تشفع لاخي بعض الشيء . وظن اخي انهُ في استطاعتي ان اوضح حقيقة الامر للضابط لعلَّ ذلك يخفف من حنيظته نحوه . غير اني لم اوافق مطلقاً على هذه الفكرة ، لأني لم ارد ان اجعل لصداقة شبت مصادفة في انكلترا مدخلاً في مثل هذه الامور . فاذا كان اخي حقيقة قد اخطأ ، ، فأي شيء يفيد تدخلي او توصيتي ؟ واذا كان بريئاً ، فما عليهِ الاَّ ان يكتب عريضة يشرح فيها حقيقة الامر وينتظر النتيجة . غير ان اخي لم ترقه هذه النصيحة . وقال لي « انك لا تعرف « كاثياوار » وعليك فوق ذلك ان تعرف الدنيا . فليس لشيءٍ قيمة هنا الاَّ الوسائط . ولا يخلق بك وانت اخي ان تمتنع عن القيام بالواجب ؛ وانت قادر على ان تفوه بكلمة طيبة عني لضابط انت على صلة به »

ولقد اصبح من المستحيل عليَّ بعد ذلك ان ارفض رأيه ، فذهبت الى الضابط على غير ارادتي وعلى كره مني . وكنت عارفاً انهُ لا يحق لي ان الاقيه ، ومتحققاً فوق ذلك اني كنت على وشك تعريض احترامي الشخصي للامتهان. ولكني على الرغم من هذا ضربت موعداً وذهبت. وما كدت اذكره بصلتنا في انكلترا ، حتى ابان لي سريعاً ان « كاثياوار » غير انكلترا ، وان ضابطاً بريطانيًّا في اجازته ، غيره وهو قائم بمهام منصبه. ولقد ذكرت الضابط بتلك الصلة التي كانت بيننا ، غير ان تذكيره بها قد جاوز بهِ الى الخشونة . اما خشونته هذه فكان معناها « انك لم تأت الى هنا اليوم الاَّ لتنتهك هذه الصلة باستغلالها » غير اني رغم ما ادركت من الموقف ، شرحت شكاتي . وهنا عيل صبره ، وقال محتدًّا — « ان اخاك دساس ، واني لا اريد ان اسمع منك شيئاً فوق ما سمعت . ليس عندي وقت . واذا كان عند اخيك ما يقوله فما عليه الاَّ ان يلجأ الى المراجع المختصة» . وربما كنت استحق هذا الجواب الحاد . غير ان حب الذات اعمى ، فعمدت بعد كل هذا الى روايتي انتها . وهنا وقف الصاحب وقال لي «يجب ان تذهب الآن» . « ولكن ارجوك ان تسمع مني» . فلم يزده كلامي هذا الاَّ غضباً . فنادى خادمه وامره ان يدلني على طريق الباب . وكنت لا ازال متردداً عندما اقبل الخادم ، ووضع يديه فوق كتفيَّ ودفعني خارج الباب

وما كدت استقرُّ في مكاني حتى كتبت مذكرة معناها « انك اهنتني ، وتهجمت عليَّ من طريق خادمك . فاذا لم تقم بما يصلح هذا الامر ، اضطررت أن ارفع امري الى القضاء »

ولكن سرعان ما تلقيت منه الجواب على يد حاجبه وقد جاء فيه

« لقد كنت بذيئاً معي . فقد امرتك بالذهاب وانت امتنعت . فلم يكن لي من بد ازاء امتناعك من ان آمر خادمي بأن يريك طريق الباب . ولقد سألتك ان تترك مكتبي لم ترد ان تفعل ذلك . فما كان لديه من وسيلة اخرى الا ان يستعمل معك من القوة قدراً يكفي لاخراجك . وانك حر في أن ترفع الأمر الى اية جهة أردت »

عدت الى المنزل ، وفي جيبي هذا الرد ، ذليلاً خافض الرأس ؛ وقصصت على أخي كل ما حصل ، فحزن . ولكنهُ لم يكن يدري طريقاً يسديني به عما حدث . وكثيراً ما تحدث عن هذا الأمر الى اصدقائه من الوكلاء ، لاني لم اكن اعرف الطريق الرسمي لمقاضاة الصاحب ، وحدث ان السر «فيروزشاه مهتا» كان في «راجكوت» في ذلك الوقت ، وقد قدم من بومباي لمباشرة قضية ما . ولكن كيف السبيل لمحام صغير حديث العهد بالمهنة ان يقابله ويحظى بلقياه؟ ولكني ارسلت اليه اوراق قضيتي عن طريق الوكيل الذي دعاه الى راجكوت وسألته الرأي في الموضوع . فقال للوكيل « أفهم غاندي ان مثل هذه الأشياء امر عادي هنا . أنهُ هبط من انجلترا قريباً ولا يزال دمه حامياً . وانه لا يعرف انضباط الانجليز . فاذا كان يريح من مهنته شيئاً هنا ، واذا كان الزمان يؤاتيه بالحاجات ، فقل له ان الاولى به ان يمزق مذكرته وأن يبلع الاهانة . فانهُ لن يربح شيئاً من مقاضاة الصاحب ، بل على الضد من ذلك تماماً يرجح كثيراً ان يكون في ذلك هدم مستقبله . وعليك ان تعرفه عني ان عليه ان يعرف عن الدنيا اكثر مما عرف حتى الآن »

كان لهذه النصيحة مرارة السم في فمي ، ولكن لم يكن لي مندوحة عن أن أبتلعها ، كما ابتلعت الاهانة ، ولكني على كل حال انتفعت بها إذ حاهدت نفسي على « ان لا أضعها في مثل هذا الموضع الدقيق مرة اخرى ، وان لا احاول ان استغل الصداقة هذا الاستغلال ثانية ». ومنذ ذلك الوقت لم ارتكب جريمة الحث بعهدي والرجوع عن تعييني هذا . غير ان هذه الصدمة الاليمة غيرت مجرى حياتي تغييراً كليًّا . ولا شبهة مطلقاً في اني كنت مخطئاً اذ اقدمت على الذهاب الى القومسير السياسي . غير أنَّ حنقه وقلة صبره وغضبه ، جعلها كانت لا تتناسب مع خطئي . ولم يكن في الأمر ما يوجب طردي . لاني كنت سوف لا استغرق من وقته أكثر من خمس دقائق . ولكن الواقع انهُ لم يستطع ان يحتمل ان يسمع مني كلاماً في الموضوع . وكان في مستطاعه ان يطلب مني في أدب ان اذهب . ولكن القوة الغاشمة اسكرته الى درجة غير كفيلة بالاتزان . ولقد علمت فيما بعد ان الصبر أبعد الاشياء عن فضائله

اما اذا عزمت على ان اتأول مهنتي في ذلك المكان فما لا شك فيه ان اكثر قضاياي سوف تنظر امام محاكمه . وكان مما يخرج عن طوقي أن اتوصل الى ترضيته والتفاهم معهُ . كما اني

لم اكن على استعداد لأن انزلف اليهِ . ولما كنت قد هددت بان اقاضيهُ ، سعب عليَّ ان اقابل ساكتاً . غير اني سرعان ما بدأت افهم شيئاً من سياسة هذه المقاطعة . فان « كاثياوار » ليست الا كتلة مكوَّنة من ولايات صغيرة . وكانت الدسائس بين الولايات ، والمؤامرات بين الضباط ليرقي كل منهم درجات القوة والسلطان الواسع ، القاعدة العامة في النظام الحكومي . وكان الامراء تحت رحمة غيرهم . ولم يكن في وسعهم الا أن يلقوا بسمعهم الى المتزلفين . ولقد شعرت بان هذا الجوَّ مشبع بالسموم ، وكيف أبقى بعيداً عن التأثر بهِ ؟ كانت هذه مشكلة بذاتها. وما لبثت غير قليل حتى شعرت بانني مكتئبٌ خائر النفس ولحظ اخي فيَّ هذا الامر . وشعر كلانا بانني اذا استطعت ان اجد عملاً بعيداً عن هذا المكان ، استطعت ان افلت من جو الدسائس والوشايات . ومن غير ان الجأ الى وسائل غير شريفة ، لم يكن في وسعي ان اشغل منصباً اداريًّا او قضائيًّا . ناهيك بمشكلتي مع القومسير السياسي

كانت « بورباندر » اذ ذاك تحت الادارة الحكومية ، وكنت هبطتها لاسعى في ان انال للامير حقوقاً اوسع من الحقوق التي يتمتع بها . وكذلك كنت ارغب في أن أرى المدير لاناقشهُ في مسألة اجور الاراضي وارتفاع القيمة التي تجبى من المستأجرين غير اني وجدت ان هذا الضابط المدير ، ولو انهُ هندي ، اشنع من الصاحب اخلاقاً وأشد زرقاً . ولقد فشلت في هذا الامر فشلاً عظيماً ، حتى لقد خيَّل اليَّ ان العدل يمنع عن زبائني عمداً وبذلك اعجز عن ان اصل اليهِ . وكل ما كان في مستطاعي ان اعملهُ لا يتعدى ان اعرض امري امام القومسير السياسي او الحاكم الذي لم يكن من شأنهِ الا أن يرفض النظر في شكواي قائلاً — « ليس من شأننا ان نتدخل في الامر » . اما اذا كان هنالك قانون أو نظام يحدد مثل هذه القرارات ، فلا شك في ان يكون لنا شأن . ولكن ماذا يكون العمل ما دامت ارادة الصاحب هي القانون ؟ غير اني شعرت في النهاية انني ساخط مغيظ ورغبت كل الرغبة في ان ابعد عن جو الدسائس جهد ما استطيع

في هذا الموقف كتبت احدى المؤسسات التجارية في « بورباندر » الى أخي تعرض عليهِ الآتي :

« لنا اعمال في جنوب افريقية . ومؤسسة من اكبر المؤسسات . وقد اشتبكنا في قضية امام المحكمة تبلغ قيمتها اربعين الفاً من الجنيهات الانجليزية . ومضى على الدعوى زمن طويل وما تزال منظورة ، واستخدمنا فيها امهر الوكلاء واشهر المحامين . فاذا سمحت بان ترسل اخاك الى جنوب افريقية فانه سوف يفيدنا ويفيد نفسه . ولسوف يستطيع ، على ما نرى ، ان يزودنا بنصائح ثمينة ، فضلاً عن انه سيرى بلاداً جديدة وينشىء علاقات مع اشخاص لم يكن يعرفهم » .

وبعد مناقشة قبلت العرض من غير اية مساومة واخذت استعد للذهاب الى جنوب افريقية

اسماعيل مظهر